الباب الثاني

في حياة الغزالي

تمهيد

نريد أن نتكلم بإيجاز عن حياة الغزالي؛ لأنه لا يعنينا منها غير جانب واحد: وهو حاله حين وضع مؤلفاته في الأخلاق.

ونحب أن ننبه القارئ إلى أن المصدر الموثوق به إنما هو كتابه «المنقذ من الضلال» فأما الكتب التي ترجمته فهي في أكثرها موصومة بالمغالاة، لأن الغزالي كما سترى نزل من أهل عصره ومن بعدهم منزلة حملت أكثر مترجميه على تصوره كرجل لا ينبغي لأحد أن يناله بنقد أو تجريح، وأنهم لواهمون.

ولم نستشير التراجم، والمترجم نفسه يتكلم بسذاجة وإخلاص عن تطور حالته العقلية؟ وهي التي تهمنا في هذا الباب.

الفصل الأول

أسرته

ولد الغزالي من أسرة فارسية، لم يهتم بها التاريخ. وأنه ليكفي أن نعرف شيئًا عن أبيه وأخيه. لنعرف الروح السائد في أسرته.

أما أبوه فقد نقل السبكي في طبقات الشافعية «أنه كان فقيرًا صالحًا لا يأكل إلا من كسب يده في عمل غزل الصوف ويطوف على المتفقهة ويجالسهم، ويتوفر على خدمتهم، ويجد في الإحسان إليهم، والنفقة بما يمكنه عليهم وأنه كان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع، وسأل الله أن يرزقه ابنا ويجعله فقيهًا، وأنه كان يحضر مجالس الوعظ، فإذا طاب وقته بكى. وسأل الله أن يرزقه ابنًا واعظًا» ص١٠٢ ج٤.

وقد صار ابنا هذا الفقير فقيهين، واعظين، فإن شئت قلت: إنها دعوة أجيبت، وإن شئت قلت: إن حب هذا الرجل للفقه والوعظ نقل إلى ولديه بطريق الوراثة.

وأما أخوه فقد ذكر غير واحد أنه طاف البلاد وخدم الصوفية في عنفوان شبابه، وصحب المشايخ، واختار الخلوة والعزلة، حتى انفتح له الكلام على طريقة القوم، وأنه خرج إلى العراق، ومالت إليه القلوب، ودخل بغداد وعقد مجلس الوعظ، فظهر له القبول، وازدحم الناس على حضور مجلسه، وإن صاعد بن فارس دون مجالسه ببغداد فبلغت ثلاثًا وثمانين. وذكر ابن خلكان أنه كان صاحب كرامات وإشارات، وإنه كان من الفقهاء غير أنه مال إلى الوعظ فغلب عليه. وينقلون إن قارئًا قرأ يومًا

بين يديه {يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله}[1] فقال شرفهم بياء الإضافة إلى نفسه بقوله يا عبادي ثم أنشد:

وهان على اللوم في جنب حبها ... وقول الأعادي إنه لخليع

أصم إذا نوديت بأسمي وأنني ... إذا قيل لي يا عبدها لسميع

ويرون أنه حكى يومًا في مجلس وعظه أن بعض العشاق كان مشغولًا بحسن صورة معشوقه، وكان هذا موافقًا له، فجاءه يومًا بكرة وقال له: انظر إلى وجهي فأنا اليوم أحسن من كل يوم. فقال: وكيف ذلك؟ قال: نظرت في المرآة فاستحسنت وجهي، فأردت أن تنظر إلي، فقال بعد أن نظرت إلى وجهك قبلي لا تصلح لي. وهذه الحكاية تمثل اتجاه خاطره نحو الفناء.

ومن كلامه: «من كان في الله تلفه، كان على الله خلفه» وكان ينصح أخاه أبا حامد الغزالي بقوله:

إذا صحبت الملوك فالبس ... من التوقي أعز ملبس

وادخل إذا ما دخلت أعمى ... وأخرج إذا ما خرجت أخرس

وكان أساتذتنا في الأزهر يقصون علينا أحسن القصص في تأثير هذا الرجل على أخيه، ويضربون لنا بورعه الأمثال، وقد حاولت أن أجد سندًا لما يتحدثون به فلم أجد، فعرفت أن أكثر ما عرف عنه إنما هو من صنع الخيال.

ولو أننا أضفنا إلى ما سلف أن الغزالي كان صغيرًا حين مات أبوه، وإن الذي كفله مع أخيه هو رجل متصوف من أهل الخير بوصية والده، لعرفنا كيف تعاونت

---

[1] سورة الزمر: ٥٣.

الظروف على أن تصبغ روحه بصبغة صوفية، وكيف أثرت هذه الصبغة على آرائه في الأخلاق.

الفصل الثاني

مولده ونشأته

ولد الغزالي في طوس سنة ٤٥٠هـ وفيها تلقى ما تفقه به في صباه على أحمد بن محمد الراذكاني؛ ثم سافر إلى جرجان حيث تلقى طرفًا من العلم على الإمام أبي نصر الإسماعيلي وعلق عنه التعليقة -كما كانوا يقولون- ثم رجع إلى طوس وأقام بها ثلاث سنين يراجع ما تلقاه في جرجان، ثم قدم نيسابور حيث يدرس أمام الحرمين في المدرسة النظامية علوم الفقه والمنطق والأصول فلازمه إلى أن توفي سنة ٤٧٨هـ. ثم خرج إلى المعسكر وهي محلة بالقرب من نيسابور يقيم فيها نظام الملك -وكان إذ ذاك في الثامنة والعشرين من عمره- وكان نظام الملك قد سمع الثناء على عقله وعلمه وأدبه. فأحضره مجلسه، وكان منتدى العلماء، فوجدت الفرصة لينشر الغزالي أثمن ما في خزانته من نفائس العلم وكان من نتيجة ذلك أن برع من كانوا يغشون مجلس نظام الملك وظهر عليهم، فولاه ذلك الوزير رتبة التدريس في مدرسة بغداد سنة ٤٨٤هـ.

ولننظر ماذا يقول عن طلبه للعلم من أوائل حياته العلمية إلى أن نيف على الخمسين: «ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين. اقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمراته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، واقتحم كل ورطة، وأتفحص عقيدة كل فرقة، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانته، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفيا إلا

وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلمًا إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيًا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته، ولا متعبدًا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقًا معطلًا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته. وقد كان التعطش إلى إدراك حقائق الأمور دأبي وديدني، من أول أمري. وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله تعالى وضعها في جبلتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد، وانحسرت عني العقائد الموروثة على قرب عهد يسن الصبا».

وهذه الفقرة تدلنا على أمرين: **الأول** أن المذاهب الفلسفية كانت كثيرة الانتشار لذلك العهد، وأن أصحابها كانوا يجتهدون في الدفاع عنها، ويجدون في إذاعتها بين الناس **والثاني** أن الغزالي لم يكن من أولئك الطلبة الأغبياء الذين لا يعرفون غير رأي واحد: يعيشون عليه، ويموتون عليه! بل كان طالب علم بمعنى الكلمة، يعرف أن واجبه يقضي عليه بأن يعلم حقيقة كل نحلة، وكنه كل مذهب، ومقصد كل فرقة، ومرمى كل عقيدة.

وكان أول ما أثار فيه هذه الرغبة ما رآه من أن صِبيَان النصارى ينشئون على التنصر، وصبيان اليهود على التهود، وأطفال المسلمين على الإسلام. وكانت هذه الملاحظة الوجيهة باعثًا له على أن يشك في دينه حتى يتبين حقيقته –وإن لم يحدثنا عن ذلك– لأنه ما الدليل على أن النصرانية خير من اليهودية، أو أن الإسلام خير من النصرانية، أو أن اليهودية خير من الإسلام، كما يتحدث النصارى والمسلمون واليهود: كل على ما هو بسبيله من تفضيل دينه على غيره من الديانات.

وهنا يصرح الغزالي بأنه انتهى إلى أنه لا قيمة للتقليد، لأنه موجود في كل أمة وفي كل ملة، وإنما القيمة كلها لليقين الذي لو تحدى لإظهار بطلانه من يقلب الحجر

ذهبًا والعصا ثعبانًا لم يورث ذلك فيه شكًّا، كما أنك لو علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة، وقال قائل لا، بل الثلاثة أكبر، بدليل أني أقلب العصا ثعبانًا، ثم قلبها وشاهدت ذلك منه، لم تشك بسببه في معرفة أن العشرة أكثر من الثلاثة.

الفصل الثالث

حياته الروحية

ولكن الغزالي لم يستمر على تلك النزعة الجريئة التي أقنعته بأن لا قيمة لغير اليقين، بل اندفع يحدثنا عن شكوك نرجح أنه لم يكن فيها غير صادق، وأخذ يبين أنه اقتنع أولا بأن اليقين ينحصر في الحسيات والضروريات، ثم أرى أنه الحس ليس أهلا للثقة به؛ لأنك تنظر إلى الظل فتراه واقفًا غير متحرك وتحكم بنفي الحركة، ثم تعرف بعد ساعة بالتجربة والمشاهدة أنه متحرك، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة، بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن حالة وقوف، ثم يذكر الغزالي أنه بعد أن بطلت ثقته بالمحسوسات ولى وجهه شطر العقليات التي هي من جنس الأوليات كقولنا: العشرة أكثر من الثلاثة، والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد، والشيء الواحد لا يكون حادثًا قديمًا، موجودًا معدومًا، واجبًا محالا. ثم يزعم أن المحسوسات قالت له: بمَ تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقًا بي فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا أن جاء حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي، فلعل وراء إدراك حاكم العقل حاكمًا آخر إذا تجلى كذب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه، وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالته؟

وهنا يدخل الغزالي في مضايق من شعاب الحدس والتخمين فيتوهم أنه لا يبعد أن يكون هناك حالة فوق اليقظة التي هي بلا شك أثبت من حالة النوم، وتكون نسبة اليقظة إليها كنسبة النوم إلى اليقظة، ثم يتردد في تعيين هذه الحالة فلا يدري أهي الموت الذي تنكشف به حقائق الأشياء لقوله تعالى: {لقد كنت في غفلة من هذا

فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد}[1] أم هي حالة الصوفية: إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي هي لهم أنهم إذا غاصوا في أنفسهم، وغابوا عن أحوالهم وحواسهم، رأوا أحوالا لا توافق المعقولات؟؟

ثم يذكر الغزالي أنه عاد إلى قبول الضروريات العقلية، ولكن عودته لم تكن بنظم دليل وترتيب كلام، بل كانت بنور قذفه الله في صدره كما قال.

ونحن لا ننازع الغزالي في أن لله نورًا يقذفه في صدور عباده ولكن نسأله: لم لا تكون الأحكام العقلية قبسًا من ذلك النور؟ ونسأله كذلك: ما هي حالة المرء الذي ينتظر هذا النور الذي تراه فوق البرهان والدليل؟

على أن الذي يعنينا قبل كل شيء: هو أن نسجل أن الغزالي وضع مؤلفاته في الأخلاق وهو على هذه الحال. ونرجع أن حياته الروحية ابتدأت بعد توليه التدريس مدرسة بغداد، ثم لازمته إلى النهاية، كما ستراه.

---

[1] سورة ق: ٢٢.

الفصل الرابع

فهمه للحياة

ولأجل أن نبين وجهة نظره في أحكامه الأخلاقية، ينبغي أن نعرف كيف كانت صحته وكيف كان مزاجه، وكيف كان فهمه للحياة، حين عني بالتأليف في الأخلاق. فإن معرفة مزاج المؤلف، وصحته، وفهمه للحياة الاجتماعية، من أهم ما ينبغي تقديمه قبل الشروع في درس ما ترك المؤلفون.

والسند الصحيح لحياة الغزالي هو كتابه (المنقذ من الضلال) فلندعه يصف لنا حياته في عزلته التي دامت نحو عشر سنين، والتي وضع في أثنائها كتاب الإحياء وهو أهم ما كتب في الأخلاق.

قال بعد كلام طويل: «ثم أنني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقهم إنما يتم بعلم وعمل، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله، وكان العلم أيسر علي من العمل فابتدأت بتحصيل علمهم، من مطالعة كتبهم، مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي، وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي وغير ذلك من كلام مشايخهم، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع، وظهر لي أن أخص خواصهم لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق والحال، وتبدل الصفات. فكم من الفرق بين أن يعلم المرء حد الصحة، وحد الشبع، وأسبابها، وشروطها، وبين أن يكون

صحيحًا وشبعان. وبين أن يعرف حد السكر، وأنه عبارة عن حال تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معان الفكر، وبين أن يكون سكران، بل السكران لا يعرف حد السكر وهو سكران ما معه من علمه شيء، والصاحي يعرف حد السكر وأركانه وما معه من السكر، والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد للصحة، فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا».

«فعلمت يقينًا أنهم أرباب أحوال، لا أصحاب أقوال، وأن ما يمس تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك، وكان قد حصل معي من العلوم التي مارستها، والمسالك التي سلكتها، في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية إيمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر: فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت في نفسي، لا بدليل معين محرر، بل بأسباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها. وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، وإن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعوائق، ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس في العلائق وقد أحدقت بي من جميع الجوانب، ولاحظت أعمالي، وأحسنها التدريس والتعليم: فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة، ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أني على شفا جرف هار، وأني قد أشرفت على النار، إن لم اشتغل بتلافي الأحوال، فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار: أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يومًا وأحل

العزل يومًا، وأقدم فيه رجلًا وأؤخر عنه أخرى، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل! الرحيل! فلم يبق من العمر إلا القليل. وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد، وإن لم تقطع الآن هذي العلائق فمتى تقطع؟!!

«فبعد ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار، ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حالة عارضة، وإياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص، والأمر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما لا تتيسر لك المعاودة. فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريبًا من ستة أشهر. أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ قفل الله على لساني حتى أعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يومًا واحدًا تطييبًا لقلوب المختلفين إلي، فكان لا ينطلق لساني بكلمة ولا أستطيعها ألبتة، ثم أورثت هذه العقلة في اللسان حزنًا في القلب بطلت معه قوة الهضم وقضم الطعام والشراب، فكان لا ينساغ لي شربة، ولا تنهضم لي لقمة، وتعدى ذلك إلى ضعف القوى، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج، وقالوا: هذا أمر نزل بالقلب، ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إلى العلاج».

وإنما نقلت هذه القطعة الطويلة من كتابه «المنقذ من الضلال» لأن الغزالي عندي صادق فيما يحدث عن نفسه، وكلامه خير للباحث من استشارة التراجم المختلفة، ولِمَ نستشير التراجم، والمترجم نفسه يحدثنا عن تطور حالته العقلية؟

وهل أدل على لون نفسه في ذلك الحين من قوله بعد ما سلف «ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه، والمال، والأهل والولد والأصحاب»؟؟

ويجب أن نتنبه لهذه الكلمة، فهي كافية في تصوير نفسه، وينبغي أن نعرف أنه نص فيما بعد على أنه دام على هذه الحال عشر سنين، وقد كتب كتبه الأخلاقية وهو في هذه الحال، ولا تسأل كيف ترك بغداد، ولا كيف عاد إلى أهله، فقد رأيت كيف اعتلت صحته، وتغير مزاجه، وكيف سهل على قلبه ترك أولاده، وهو الذي تمدح بأنه كان يصعد منارة مسجد دمشق طوال النهار ويغلق بابها على نفسه، وكان يرحل إلى بيت المقدس فيدخل الصخرة كل يوم ويغلق بابها على نفسه!!

على أنه بعد أن عاد إلى أهله «آثر العزلة أيضا حرصًا على الخلوة، وتصفية القلب للذكر» كما قال.

وأنا لا أهتم بما ذكر من أنه انكشف له «في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها، واستقصاؤها» وإنما يهمني أن أثبت أنه كتب ما كتب في الأخلاق وهو على هذه الحال.

ويتلخص ما سلف في ثلاثة أمور:

الأول: ما ورثه عن أبيه من نزعته الصوفية.

الثاني: ما استفاده من وصية تأييدًا لتلك النزعة.

الثالث: عشر سنين قضاها في العزلة، لها ما لها من الأثر في تكوين نفسه، وتكييف مزاجه، والتأثير في كتبه.

إذًا ليعلم القارئ منذ الآن أن النزعة الغالبة على فهمه للأخلاق إنما هي نزعة الصوفية، وسيرى ذلك مفصلا في عدة مواطن من هذا الكتاب.

الفصل السادس

وفاته ورثاؤه

ترك الغزالي بغداد، وقصد البيت الحرام، وأدى فريضة الحج في سنة ٤٨٩هـ ومكث فيها أيامًا، ثم توجه إلى بيت المقدس فجاور به سنة ٤٨٨هـ بعد أن أناب أخاه عنه في المدرسة النظامية، ثم دخل دمشق مدة، ثم عاد إلى دمشق واعتكف في المنارة الغربية من الجامع؛ ثم ذهب إلى الإسكندرية وأقام بها مدة، ويقال: إنه كان ينوي الرحلة إلى السلطان يوسف بن تاشفين، لما بلغه من عدله، ولكنه لما سمع بموته عاد إلى التجول في الآفاق لزيارة المشاهد والترب والمساجد، كما يقول مترجموه، ثم رجع إلى بغداد وعقد بها مجلس الوعظ، وتكلم بلسان أهل الحقيقة وحدث بكتاب الإحياء. ثم عاد إلى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية في نيسابور، ثم رجع إلى طوس واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية، ووزع أوقاته على وظائف من ختم القرآن ومجالسة أرباب القلوب، والتدريس لطلبة العلم، وإدامة الصلاة والصيام، إلى أن توفي رحمه الله بطوس يوم الاثنين رابع عشر جمادي الآخرة سنة ٥٠٥هـ قال السبكي: ومشهده يزار بمقبرة الطابران.

قال الزبيدي: ووجدت في كتاب بهجة الناظرين وأنس العارفين للعارف بالله محمد بن عبد العظيم الزموري ما نصه: ومما حدثنا به من أدركنا من المشيخة أن الإمام أبا حامد الغزالي لما حضرته الوفاة أوصى رجلًا من أهل الفضل والدين -كان يخدمه- أن يحفر قبره في موضع بيته، ويستوصي أهل القرى التي كانت قريبة إلى موضعه ذلك بحضور جنازته وأن لا يباشر أحدًا حتى يصلي ثلاثة نفر من الفلاة لا يعرفون ببلاد العراق، يغسله اثنان منهما ويتقدم الثالث للصلاة عليه بغير أمر ولا

مشورة... فلما توفي فعل الخادم كل ما أمر به، وحضر الناس، فلما اجتمعوا لحضور جنازته رأوا ثلاثة رجال خرجوا من الفلاة، فعمد اثنان منهم إلى غسله، واختفى الثالث ولم يظهر، فلما غسل وأدرج في أكفانه، وحملت جنازته، ووضعت على شفير قبره، ظهر الثالث ملتفًا في كسائه، وفي جانبه علم أسود، معممًا بعمامة صوف، وصلى عليه وصلى الناس بصلاته، ثم سلم وانصرف، وتوارى عن الناس، وكان بعض الفضلاء من أهل العراق ممن حضر الجنازة ميزه بصفاته ولم يعرفه، إلى أن سمع بعضهم بالليل هاتفًا يقول لهم: إن ذلك الرجل الذي صلى بالناس هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن إسحاق الشريف جاء من المغرب الأقصى من عين القطر، وأن اللذين غسلاه هما صاحباه ... إلخ».

وهذه بالطبع خرافة لفقهاء المتصوفة بعد موت الغزالي، وهي في ذاتها على أن الغزالي لم يمت إلا بعد أن اتفق العامة على صلاحه، فقد رمي بالزندقة في جزء من حياته، ثم عاد في نظر العامة من المكاشفين، حتى ليذكرون أنه أنشأ عند موته هذه القصيدة:

قل لأخوان رأوني ميتا ... فبكوني ورثوني حزنا

أعلى الغائب منا حزنكم ... أم على الحاضر معكم هاهنا

أتخالوني بأني ميتكم ... ليس ذاك الميت والله أنا

أنا في الصدر وهذا بدني ... كان جسمي وقميصي زمنا

وهي طويلة تجدها ضمن مجموعة مخطوطة نمرة ١٢١ تصوف بدار الكتب المصرية. وهي كذلك مما لفقه أصحابه بعد موته، وما أكثر ما زور باسمه من الآثار!!

ونقل ابن الجوزي في «كتاب الثبات عند الممات» عن أحمد أخي الغزالي أنه قال: «لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ أخي أبو حامد وصلى، وقال علي بالكفن،

فأخذه وقبله ووضعه على عينيه، وقال: سمعًا وطاعة للدخول على الملك، ثم مد رجليه واستقبل القبلة، ومات قبل الأسفار».

وسبحان من تفرد بالبقاء.

وقد رثاه الأبيوردي بقوله:

بكى على حجة الإسلام حين ثوى ... من كل حي عظيم القدر أشرفه

فما لمن يمتري في الله عبرته ... على أبي حامد لاح يعنفه

تلك الرذيلة تستوهي قوى جلدي ... فالطرف تسهره والدمع تنزفه

فما له خلة في الزهد منكرة ... وما له شهة في العلم تعرفه

مضى، وأعظم مفقود فجعت به ... من لا نظير له في الناس يخلفه

وقال في رثائه القاضي عبد الملك المعافى:

بكيت بعيني ثاكل القلب وإله ... فتى لم يوال الحق من لم يواله

وسيبت دمعًا طالما قد حبسته ... وقلت لجفني واله ثم واله

ونحن -في جملة من انتفع بمؤلفات الغزالي- نسأل الله أن يرحمه رحمة واسعة، وأن يجزيه أحسن الجزاء على ما قدم في سبيل العلم والدين من صادق الجهود، وأن يتجاوز عن سيئاته بمنه وكرمه إنه نعم المولى ونعم النصير، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم.